

التصوف وأثره في الجزيرة السورية

علاء الدين جنكو⁽¹⁾

المقدمة

تتربع سورية بوصفها دولة ذات سيادة على أساس واسع تزينه أطياف متنوعة من الديانات والطوائف والمذاهب، ويعد السنة المكون الأكبر في البلد، ويتمثل تحت ظلاله التنوع القومي العربي والكوردي والتركماني والشيشاني وغيرهم.

تميزت هذه القاعدة الدينية للمجتمع السوري عموماً بالاعتدال والوسطية ونبذ التطرف والتشدد، واتسمت بطابعها وتوجهها الصوفي المتنور.

الجزيرة السورية بمكوناتها المختلفة سيطرت الطرق الصوفية على صبغتها الدينية، لتصبح مركزاً مهماً لأشهر طريقة صوفية؛ وهي النقشبندية.

هذا الانتشار الموعول للتصوف في مجتمع الجزيرة أثمر عددًا من النقاط المشرقة فيها كما رسم في بعض الأحيان نقاطاً سوداء أثرت في مسار دعائها.

لم يكن النظام محض متفرج على ما يجري هناك بل حاول قدر الإمكان الاستفادة من زعامات التصوف ومشايخها الذين حاولوا بدورهم نشر دعواتهم وتكثيف نشاطهم، فنشأت علاقة أمر واقع بينها وبين النظام قائمة على أساس غض الطرف والنأي بالنفس.

وبقدر حماية نهج التصوف سلوكيات أهل الجزيرة كسياج مانع لكل ما يشوه صورة الإسلام الحنيف من تشدد وتطرف وإرهاب، كانت له أيضاً نقاط سوداوات أصبحت، وما زالت، محل استفسار كثير منا، والمطالبة بدراستها ونقدها.

حاولت قدر الإمكان خلال هذا البحث التطرق لهذا الجانب واضعاً الموضوعية نصب عيني وأدعو الله أن أكون قد وفقت لذلك.

ولعل أهم العوائق التي حالت دون الوصول إلى المراد بشكله المطلوب قلة المصادر المكتوبة والمدونة فيه، لذلك اعتمدت على منهج الرواية في نقل الأحداث من خلال أشخاص عاشوا الحدث، فكانوا لي خير مصدر لذلك.

(1) علاء الدين جنكو: أستاذ مساعد في قسم القانون بكلية القانون والسياسة بجامعة التنمية البشرية في السلبيمانية.

المبحث الأول: ماهية التصوف وتاريخ نشأته في الجزيرة

المطلب الأول: ماهية التصوف ونشأته

المسألة الأولى ماهية التصوف

أولاً: معنى التصوف لغة واصطلاحاً

التصوف في مفهومه العام هو الطريقة التي يتعبد بها أتباع الطائفة الصوفية، أما معنى التصوف الخاص فإنه يقسم إلى شقين رئيسين، وهما معنى التصوف لغةً ومعناه اصطلاحاً أو ما يقصد به، لذا سيتم توضيح معنى التصوف بشيء من التفصيل في ما سيأتي:

التصوف لغة: التصوف لغةً مصدر الفعل تصوفٌ، والمتصوف هو الشخص المنتهي إلى الطائفة الصوفية، وذهب أحمد بن علي المقري إلى أن كلمة صوفية كلمة مولدة لا يشهد لها قياس ولا اشتقاق في اللغة العربية⁽²⁾.

وقال ابن خلدون: "وأظهر إن قيل بالاشتقاق أنه من الصوف وهم في الغالب مختصون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف"⁽³⁾.

التصوف اصطلاحاً: يقول صاحب تنوير القلوب: "فحد التصوف: هو علم يعرف به أحوال النفس محمودها ومذمومها، وكيفية تطهيرها من المذموم منها، وتحليلها بالاتصاف بمحمودها، وكيفية السلوك والسير إلى الله تعالى والفرار إليه"⁽⁴⁾.

ثانياً: سبب تسميتهم بهذا الاسم

ذكر العلماء بعض الأسباب في تسمية القوم بهذا الاسم (الصوفية) فمنهم من ذهب إلى أنهم سموا صوفية نسبة لهم إلى ظاهر اللبسة، لأنهم اختاروا لبس الصوف لكونه أرقق، ولكونه كان لباس الأنبياء عليهم السلام، وفيه - أي في تسميتهم نسبة إلى لبس الصوف⁽⁵⁾.

ومنهم من قال: إنه الصفاء، والصوفي من صفا قلبه من الكدر، وامتأ من العبر، واستوى عنده الذهب والمدر⁽⁶⁾.

المسألة الثانية: ماهية التصوف وثمرته ونشأته

(2) - انظر: أحمد بن علي المقري، المصباح المنير، يوسف الشيخ محمد (محققاً)، ط 2، بيروت، المكتبة العصرية، 1418هـ، ص 183.

(3) ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، خليل شحادة (محققاً)، ج 1، ط 2، بيروت: دار الفكر، 1988، ص 611.

(4) محمد أمين الكوردي، تنوير القلوب، ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1995، ص 435.

(5) شهاب الدين عمر السهروردي، عوارف المعارف، أحمد عبد الرحيم السايح (محققاً)، ط 1، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2006، ج 1 ص 70.

(6) عدنان حقي، الصوفية والتصوف، ط 2، (دمشق: دار العلوم الإنسانية، د.ت)، ص 28، وانظر: محمد أمين الكوردي، تنوير القلوب، ص 438، و ابن تيمية، مجموع الفتاوى، (السعودية: الأوقاف السعودية، وزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 2004)، 6/11.

أولاً: ماهية التصوف وثمرته

يقول بعضهم إن الفقر هو أساس التصوف، ومنهم معروف الكرخي الذي يقول: من لم يتحقق بالفقر لم يتحقق بالتصوف⁽⁷⁾.

وأهل الشام لا يفرقون بين التصوف والفقر يقولون: قال الله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾⁽⁸⁾

ويقول الإمام الجنيد: وقد عرفه أيضا بما يلي فقال: "التصوف تصفية القلب عن موافقة البرية ومفارقة الأخلاق الطبيعية وإخماد الصفات البشرية ومجانبة الدواعي النفسانية ومنازلة الصفات الربانية والتعلق بعلوم الحقيقة واتباع الرسول في الشريعة"⁽⁹⁾.

ثانياً: نشأة التصوف

لا يعرف على وجه التحديد من بدأ التصوف في الإسلام⁽¹⁰⁾، ومما ورد أن التصوف أول ما نشأ بالبصرة، وأول من بنى ديرة التصوف بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد من أصحاب الحسن البصري⁽¹¹⁾.

وبعضهم يصرح: "أن الصحابة والتابعين - وإن لم يتسموا باسم التصوف - كانوا صوفيين فعلاً، وماذا يراد بالتصوف أكثر من أن يعيش المرء لربه، ويتحلى بالصفات الحسنة، وملازمة العبودية لله تعالى والإقبال عليه بالروح والقلب في جميع الأوقات، ومراقبة الله تعالى في كل أحواله"⁽¹²⁾.

ويرجع صاحب هذا الرأي عدم ظهور مصطلح التصوف، أو تسمية الصوفية زمن الصحابة والتابعين إلى عدم الحاجة إليه، إذ كانوا أهل تقوى وورع ومجاهدة بطبيعتهم، هذا مع أنه يؤكد أن هناك مصطلحات علمية ظهرت بعد زمن الصحابة واستعملت دون تكبير كعلم النحو والفقه، بعد أن دعت الحاجة إلى ظهورها، وكذلك علم التصوف⁽¹³⁾.

المطلب الثاني: تاريخ التصوف في الجزيرة السورية

المسألة الأولى: نبذة عن الأسر الصوفية في الجزيرة السورية

(7) السهروردي، مصدر سابق، ص70.

(8) سورة البقرة / 273.

(9) محمد بن إبراهيم الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف، ط1، (مصر: مكتبة الكليات الأزهرية، 1969)، ص34.

(10) عدنان حقي، مرجع سابق، ص24.

(11) ابن تيمية، الصوفية والفقراء، قدم له محمد جميل غازي، (ب ط)، (جدة، دار المدني، د.ت)، ص15.

(12) من كتاب الذكرى السادسة لرحيل شيخ الطريقة النقشبندية ص9.

(13) المرجع السابق، بتصرف.

كانت الجزيرة السورية جزءاً من ولاية ماردين في العهد العثماني، وكان في هذه الولاية أسر صوفية منها: الأسرة الحامدية، والأسرة الخزنوية، والأسرة الزيبارية العلوانية، والأسرة الديرشوية.

أما الأسرة الحامدية: وعلى الرغم من شهرتها العظيمة في ماردين وما حولها، إلا أنها قلت شهرتها، ولم يبق في محافظة الحسكة السورية أحد منهم يعرف، إلا ما كان من الشيخ قطب الدين الحامدي، وكان قد سكن مدينة دير الزور السورية إلى أن توفاه الله فيها. (والشيخ فيض الله الحامدي الذي سكن عامودا)

أما الأسرة الزيبارية العلوانية: فقد كانت تقطن قرية باسرت في منطقة بوهطان، وكان من أمر هذه الأسرة أن صارت عمادة هذه الأسرة إلى الشيخ ابراهيم حقي ابن الشيخ حسين ابن الشيخ خالد الزيباري رحمهم الله بعد أن نال الشيخ إبراهيم حقي إجازة الخلافة من أبيه الشيخ حسين، ثم هاجر الشيخ إبراهيم حقي إلى العراق بعد انقلاب أتاتورك، ثم هاجر إلى سورية، واستقر في قرية حلوة من أعمال منطقة القامشلي إلى أن توفاه الله.

ثم خلفه ابنه الشيخ محمد زكي وبعد وفاة الشيخ محمد زكي، كان الشيخ علوان هو الخليفة من بعده، وبعد وفاة الشيخ علوان في بداية التسعينيات، أقام الشيخ محمد خاشع بن الشيخ إبراهيم حقي في مسجد أبيه وإخوانه ليقوم بمهمات الإرشاد والدعوة، أما الشيخ عدنان بن الشيخ إبراهيم حقي، فبقي مقيماً في مدينة القامشلي يقوم بدوره بأداء المهمة من بعد أخيه الشيخ علوان⁽¹⁴⁾.

وبعد وفاة الشيخ خاشع والشيخ عدنان تولى المشيخة الأستاذ الشيخ كلال بن الشيخ محمد زكي، وما زال قائماً بمهمته إلى يومنا هذا.

أما العائلة الديرشوية: فقد استقر الشيخ رشيد بن الشيخ محمد نوري في قرية الرميلا التابعة لمنطقة المالكية، يدعو إلى الإرشاد والصلاح إلى أن توفاه الله وخلفه في الإرشاد والدعوة ابنه الأكبر الشيخ محمد نوري، والذي نال الإجازة العلمية من الشيخ إبراهيم حقي، وبعد وفاة الشيخ محمد نوي تولى ابن عمه الشيخ محمد نذير المشيخة ثم آلت بعد وفاته إلى ابنه الأستاذ الشيخ محمد بشير الديرشوي الذي يقيم الآن في قرية مرجة المجاورة لقرية الرميلا⁽¹⁵⁾.

الأسرة الخزنوية

وإضافة إلى هذه الأسر العريقة، فقد ظهرت أسرة صوفية في أواخر العهد العثماني وبدايات القرن العشرين الميلادي، تدعى الأسرة الخزنوية، ومؤسسها الشيخ أحمد بن ملا مراد رحمهما الله، وكان ملا مراد إمام مسجد قرية شوطي، التابعة اليوم لمدينة القامشلي.

وعلى الرغم من أن الشيخ أحمد وأباه كانا فقيرين جداً إلا أن أبناء الشيخ أحمد وأحفاده اليوم حالتهم المادية ميسورة، إذ يملكون القرى والعقارات والعمارات وقطعان الماشية والأغنام في كل من سورية وتركيا.

(14) انظر: طه شكري، نبذة من أحوال المرشد إبراهيم حقي وأثره العلمي، ط1، (دمشق: دار النعمان، د.ت) ص15، ومحمد خير يوسف، تنمة الأعلام، ج2، ط1، (بيروت: دار ابن حزم، 2002)، ص52.

(15) انظر: الشيخ محمد نوري الديرشوي، القطف الجنية، (دم، دن، د.ت) ص155.

أما اسم الخزنوية فقد اكتسبتها هذه الأسرة من إقامة الشيخ أحمد، رحمه الله، في قرية خزنة⁽¹⁶⁾، وهي من قرى منطقة القامشلي، حيث سكن فيها مدة، ثم انتقل إلى قرية تل معروف، والتي اشتراها الشيخ أحمد من الشيخ محمد العبد الرحمن شيخ عشيرة طيء العربية، وما زالت هذه الأسرة في هذه القرية.

فقد خلف الشيخ محمد معصوم أباه بعد وفاته ثم خلف الشيخ علاء الدين أخاه بعد وفاته، ثم خلف الشيخ عز الدين أخاه علاء الدين بعد وفاته، ثم خلف الشيخ محمد النجل الأكبر للشيخ عز الدين أباه، وهو في تل معروف (الشيخ محمد توفي في السعودية نتيجة حادثة سيارة منذ نحو عقد ونصف)، أما ابن الشيخ أحمد الأصغر الشيخ عبد الغني حصل على إجازة الخلافة في الطريقة النقشبندية من خليفة الشيخ أحمد، الملا أحمد المفتي مفتي مدينة الحسكة سابقاً⁽¹⁷⁾.

وعلى الرغم من أن الشيخ أحمد ظهر في عصر متأخر نسبياً بالنسبة إلى الأسر سابقة الذكر، إلا أن الأسرة الخزنوية اكتسحت الساحة، وامتد نفوذها الدعوي إلى بلاد بعيدة في كل من تركيا وسورية بل ولبنان وأوروبا، وهي اليوم صاحبة الصيت والشهرة. (تراجع تأثير هذه الأسرة بعد رحيل كل من الشيخ محمد معشوق الخزنوي والشيخ محمد الخزنوي عام 2005).

هذا وتوجد بعض العائلات الصوفية في مناطق متفرقة، كما هو الحال في مدينة تل كوجك وعامودة والحسكة، ولكن لا شأن لهم ولا شهرة في هذا المجال.

هذه نبذة سريعة ومختصرة جداً عن وجود العوائل الصوفية في الجزيرة السورية. فما أثر هذا التصوف فيها؟

المسألة الثانية: الحياة الاجتماعية والثقافية والفكرية في الجزيرة السورية

كانت الحياة الاجتماعية في الجزيرة السورية لا تختلف عن غيرها من المناطق إن لم نقل إنها الأسوأ. فالنشاط الاقتصادي كان يقوم في هذه المنطقة على زراعة بدائية متخلفة، ورعي للأنعام في المراعي الوفيرة في تلك البلاد. ويقول الكاتب محسن سيدا: "فالتركيبة الاجتماعية للسكان والتي اهتمت الزراعة إلى جانب الرعي سمة مشتركة للسكان الكرد والعرب في البلاد الجزرية"⁽¹⁸⁾.

إلا أن حياة الفقر والحرمان هي السائدة بين الغالب الأعم من السكان، بل أحياناً كانت بعض القبائل تعتمد على أساليب الغزو والسلب والنهب، وكانت السرقة تعد سمة من سمات الشجعان في ذلك العصر.

وبقيت المنطقة تعاني التهميش الاقتصادي على مر الحكومات المتعاقبة على حكم سورية، وإن كانت في ظل حكم نظام الأسد هو الأسوأ في تاريخها، على الرغم أن منطقة الجزيرة هي السلة الحقيقية للاقتصاد السوري.

(16) انظر: علاء الدين جنكو، «إسهام الكورد في الحياة الروحية والدراسات الإسلامية في سوريا»، مجلة قلمون، العدد الثاني (أغسطس 2017)، ص 161.

(17) معتر الخزنوي، وعبد البديع الخزنوي، مکتوبات الشيخ أحمد الخزنوي، ط 1، (إسطنبول: مكتبة أكتاش، د.ت) ص 26.

(18) محسن سيدا، «أكراد الجزيرة في المصادر العربية الإسلامية»، موقع مدارات كورد، بتاريخ 2016/6/27 على الرابط:

أما الحياة الاجتماعية فكانت قائمة على القبلية والعشائرية، فالأغا الأكبر هو رئيس العشيرة، وربما كان للأغا أبناء وأخوة منتشرين في قرى ومواقع عدة، يعد كل واحد منهم سلطة محلية تابعة لرئيس القبيلة، وكانت الموارد المالية لهؤلاء الأغوات تعتمد على الأتاوات، وأعمال السخرة الظالمة المفروضة على بقية أبناء القبيلة من الفلاحين والرعاة، وكانوا يعاملون عامة الناس بكل صلف وتكبر، بل ربما كانوا يوقعون كثيرًا من الأذى بالناس عن طريق السلطات الحاكمة في عصورهم.

أما من الناحية الفكرية والثقافية: فكان المجتمع يعيش في حضيض التخلف، حيث الجهل والأمية والخرافة والشعوذة قد أطفأت أنوار العقل، وجعلت المرء يعيش في ظلمات العمية، وشارك التقليد، وأوجال العصبية المقيتة، سواء كانت هذه العصبية قبلية أو دينية.

وعند الكلام عن النواحي الفكرية والثقافية، لا بد أن نتكلم عن الجانب الاعتقادي، فقد كان المجتمع يعيش عقيدة أقرب إلى الشرك منها إلى التوحيد، فكانت خرافة أن قبور الأولياء تنفع وتضر سائدة، فكان الناس - وربما ما يزال بعضهم - يتقربون إلى تلك القبور بالنذور والقرايين، يطلبون منها قضاء حوائجهم، وكانت عقيدة القائلة بأن سبع زيارات لمرقد الشيخ تعدل حجة؛ راسخة في عقول النساء خاصة.

فضلاً على ذلك، فإن عقيدة أن الشيخ يعلم كل صغيرة وكبيرة تبدر من المرید، حتى كان بعض الجهلة من المریدين - وأكثرهم جهال - يقولون إنهم يستحيون بجامعة زوجاتهم لأنهم يعلمون حق العلم أن شيخهم يراهم وينظر إليهم.

المبحث الثاني: آثار الطرق الصوفية في الجزيرة واستغلال النظام لها

المطلب الأول: أثر الطرق الصوفية في الجزيرة السورية

المسألة الأولى: بعض المظاهر الإيجابية في حياة القائمين على التصوف

- كانت الأسر الصوفية تبذل جهودها من أجل إصلاح المجتمع قدر المستطاع، فكانوا يأمرون مریديهم بالمعروف، ويهتوهم عن المنكر، ويحذرونهم من سخط الله وعذابه، وكان بعضهم يتأثر بهذه التربية، وتظهر عليهم سيما الصلاح والالتزام بشريعة الله قدر المستطاع.

- كانت الأسر الصوفية تهتم بطلاب العلم، وتربئ لهم الجو المساعد لطلب العلم من السكن والطعام، ولكن أسلوب الدراسة عندهم كان قديمًا متخلّفًا يقتصر على الاهتمام باللغة العربية، وربما بشيء من العلوم الأخرى، ولكن من دون الاهتمام بالكتاب والسنة؛ لذلك كان المتخرجون والمجازون من معاهدهم لا يصلحون للإمامة مسجد، وغسل أموات، وإبرام عقد الزواج، مقابل جزء من الزكاة يدفعه إليهم أهل القرى التي يعينون فيها من قبل المشايخ؛ رؤساء الأسر الصوفية.

وقد سجل لآل الخزنوي أنهم أسهموا في تطوير المجال التعليمي، حيث أنشئت أول مدرسة نظامية خاصة

في القامشلي عام 1956م على يد الشيخ محمد معصوم الخزنوي، لتكون المدرسة الخاصة الأولى على مستوى الجزيرة السورية، لكن لم يتم الاستغناء معها عن المدرسة التي كانت تعلم وفق المنهج الكردي على الرغم من التوسع في بناء رياض الأطفال والمدارس والمعاهد، ولكن هذا المشروع لم يستمر في زمن أسلافه بالسوية ذاتها، ما أنتج في الحقيقة هيكلية تعليمية هشّة وسطحية، على الرغم من أن عدد الطلبة كان قد ازداد أكثر مقارنة مع العهود السابقة.⁽¹⁹⁾

- لأن الناس كانوا ينظرون إلى الأسر الصوفية نظرة التقديس، كانت لهذه الأسر اليد الطولى في إجراء الصلح بين القبائل المتناحرة، أو الأسر المتقاتلة، فتضع الحد لاستفحال الشر، وتقطع دابر الفتن.

- كانت الأسر الصوفية بمنزلة المحاكم في المناطق الخاضعة لنفوذهم، يلجأ إليها المتخاصمون في الأمور التي يستعصي حلها على إمام القرية، وكان لكل شيخ من مشايخ الأسر الصوفية عالم متفرغ بمنزلة القاضي؛ ليحكم بين الناس في حل نزاعاتهم وفض خصوماتهم، وبفضل هذه الظاهرة يبقى دور المحاكم الرسمية التابعة للدولة ثانويًا إلا في القضايا التي يستعصي حلها على المشايخ وقضاتهم.

المسألة الثانية: مواقف ربانية جريئة من بعض العلماء الصوفية في الجزيرة

- في بدايات الستينيات من القرن العشرين، ومع بدايات الثورة الكردية في كردستان العراق بقيادة الملا مصطفى البارزاني، طلبت جهات أمنية في سورية آنذاك من المشيخين علاء الدين وعزالدين الخزنوي أن يعلنوا أن الملا مصطفى البارزاني كافر شيوعي؛ حتى ينفر منه الأكراد ولا يتعاطفوا معه.

ولكنهما وقفا موقفًا إيمانيًا صلبًا على الرغم من التهديد من قبل جهات الأمن آنذاك، ورفضوا العرض والأمر جملة وتفصيلاً، وقال الشيخ عز الدين: أنا مستعد أن أوجه موعظة، ومن خلال الإذاعة السورية إلى طرفي النزاع أن يتقوا الله في دماء المسلمين، ويتحاكموا إلى شرع الله في نزاعاتهم، وهكذا تخلص من المسؤولية الأمنية ودعوتهم إلى تكفير المسلم⁽²⁰⁾.

المسألة الثالثة: بعض السلوكيات السلبية والمتناقضة مع التصوف الحق

- زحفت المدنية الحديثة في العصر الحديث بين البشرية زحفاً دائرياً، وبكل الاتجاهات، وكان بعض - وربما الأغلب - الداعين إلى المدنية الحديثة هم من العلمانيين، والذين لم يدرسوا الإسلام إلا من خلال سلوك بعض علماء ورجال التصوف في ولاية ماردين ومحافظة الحسكة، ثم قارنوا ما وجدوه مع العلم والعقل والأخلاق، فرأوا كثيراً من التناقض. فراحوا يحاربون الإسلام من خلال سلوكيات بعض علماء التصوف.

(19) انظر: نوبار محمد، «علاقة الكرد بالتصوف من خلال الطريقة النقشبندية»، موقع مدارات كورد، بتاريخ 2015/5/1 على الرابط:

<https://www.medaratkurd.com/201505/>

(20) ينظر: حوار مع الأستاذ عبد القادر خزنوي، موقع ولائمة، الجمعة 03 شباط 2012، على الرابط:

<https://www.welateme.info/erebi/modules.php?name=News&file=article&sid=11537>

ولما لامست انتقادات هؤلاء العلمانيين كبرياء هؤلاء المتصوفة، وقفوا لهم أيضا موقف العداء، لا للعلمانيين فحسب، بل العداء لكل ما هو مدني عصري ولو كان من صميم الإسلام، بمثل الدراسة وطلب العلم في المدارس الحديثة.

إذ حرموا الدراسة في هذه المدارس، حتى ولو كانت مدارس شرعية، فقد منع بعضهم تلاميذهم من الدراسة في الثانويات الشرعية، وقد كان والدي من أحد طلبة المدرسة الشرعية في تل معروف الخزنوي ولما لزم انتقاله للدراسة في حلب اشترط عليه والده موافقة بيت الشيخ، لكن الشيخ عز الدين الخزنوي لم يسمح له، وتمكن الوالد من الالتفاف على والده والسفر لحلب والانتساب للمدرسة الخسروية مخالفاً بذلك الشيخ عز الدين، ولولا تدخل الشيخ علاء الدين لمنع جدي ابنه من مواصلة دراسته الشرعية.

- من أساليب حرهم للمدنية الحديثة أنهم أنكروا الصلاة لمن صلاها حاسر الرأس، ورأوا ذلك من الكبائر، وقد ذكر لي حجي محمد حسن إبراهيم مختار قرية التنورية، وهو من قدماء مريدي آل الخزنوي: "أن الذي أعرفه أن بيت الشيخ قالوا: إن حاسر الرأس ما كانت تقبل له شهادة!".

- وحاربوا دراسة البنات حرباً شعواء، ولما سجل أحد ساكني قرية تل معروف، وهو محمد شيخموس نالبند (أبو سهيلة) ابنته في الصف الأول الابتدائي في مدرسة القرية - وكان هذا تحدياً منه، إذ إن بيت الشيخ منعوا أهل القرية من إرسال بناتهم إلى المدرسة الحكومية واقتصار تعليمهم على قراءة القرآن- وكانت النتيجة تهجم "زعران" المتصوفة عليه، وضربوه ضرباً مبرحاً، وألقوا به في مستنقع القرية، ثم أجبروه على الرحيل من القرية فخرج أبو سهيلة ليستقر في العنترية، إحدى ضواحي القامشلي، مصرّاً على إرسال ابنته إلى المدرسة!⁽²¹⁾

وفي مشهد آخر في هذا المضمار قال لي الأستاذ سامي ملا أحمد نامي: "إن مدرسة تل شعر التي بنيت بمساعي والدي واجهت معارضة شديدة من المتصوفة من أهل القرية، وكانوا من مريدي بيت الشيخ إبراهيم حقي، فلجؤوا إليه يشتكون أن الملا ملا أحمد نامي بنى خيمة للشيطان على قرية تل شعر ليكون سبباً في تضليل بناتهم، وكانت نتيجة تلك المعارضة أن ترك الملا أحمد إمامة القرية نهائياً".

- منع مشايخ التصوف مريديهم من زيارة المشايخ الآخرين، وحذروهم من تلقي التوبة أو تعاليم التصوف من شيخ آخر؛ لأن ذلك يضر بالمريد، مثل المريض الذي يعالج نفسه عند طبيبين في آن معاً.

وكان لهذا السبب أن تعرض بعض العلماء وأئمة المساجد للضرب من قبل بعض المتصوفة في تل معروف لرغبتهم في الذهاب إلى خزنة. فقد تعرض الملا عبد الحليم ملا سعيد للضرب ومحاولة إلقاء عمامته على الأرض لإهانته، كما تعرض ملا بشير للضرب من قبل عصابات الصوفية الذي لم يكتفوا بالضرب، فحرقوا بيته أيضاً، هذه الجرائم كلها لأن هؤلاء أرادوا زيارة الشيخ عبد الغني الخزنوي في قرية خزنة.

- كانت اهتماماتهم بالأثرياء أكثر من اهتمامهم بالفقراء، فقد كانوا يقوموا بتعزية الأثرياء إذا مات منهم أحد، وربما كرروا الزيارة إلى مجلس عزائهم، هذا مع عدم الذهاب إلى بيوت الفقراء، حتى وإن كان أخلص الخلص من مريديهم، ويقومون بعيادة مرضى الأغوات ورؤساء القبائل، مع أنهم لم يعودوا المرضى المقربين إليهم بسبب فقرهم، هذا مع أن بعض المشايخ وفي بعض الأحيان - وإن كانت هذه الأحيان قليلة - يقوم بعيادة مرضى الفقراء،

(21) سمعت قصة أبي سهيلة من والدي رحمه الله كما رواها لي عبد الرزاق خليل المحمد وهو من أهالي قرية تل معروف.

وتعزية ذوي الموتى منهم، وخاصة في العقدين الأخيرين من القرن العشرين، وذلك بسبب شدة الانتقادات لهؤلاء الشيوخ من قبل العلمانيين في المنطقة.

- كان كثير من مشايخ التصوف يتناقضون مع بعض مواعظهم، وخاصة عندما كانوا يدعون الناس إلى التزهّد في الدنيا، مع أنهم كانوا يظهرّون أمام الناس بأفخر الملابس، ويركبون أفخم السيارات، ويسكنون أروع القصور و"الفيلاّت" التي كانت تبني على كواهل فقراء مريديهم، الذين كانوا يعملون عند شيخوهم الأشهر الطويلة مع أن أهلهم و أولادهم كانوا يعيشون حياة البؤس والحرمان، وكان هذا المريد يرى عمله المجاني لشيخه قربة وعبادة، بل كان شيخه يحثه على ذلك، إذ يعتبر عمله خدمة للتكية. وكان المشايخ يقضون أيام الصيف والاستجمام في المصايف والمنتجعات الراقية في مصايف دولهم أو خارج دولهم.

- كان بعض مشايخ التصوف فقراء أبا عن جد، ولما أصبحوا من دعاة التصوف اغتنوا غنى فاحشاً، وملكوا القرى واسعة المساحات، والمطاحن والحصادات والجرارات والعقارات في المدن ومراكز السياحة، بل في دول مجاورة ملكوا قطعان الماشية والأغنام والبساتين والغابات، يقولون للناس إنها أموال السادات، ويعنون سادات الطريقة النقشبندية، ولما مات مؤسسوا هذه البيوت وقعت الخلافات والخصومات بين أبناء هذه العائلات، واختلفوا في توزيع ميراث أموال السادات، وممتلكاتهم.

- حرصوا على مصالحهم، ورعوها أكثر من رعاية مصالح الفقراء والفلاحين الساكنين في قراهم، فكانوا لا يسمحون للعاملات في المشروعات الزراعية أن يعملن لدى أصحاب أي مشروع حتى ينهوا العمل في مشروعاتهم، حتى لو كان العمل في المشروعات الأخرى أعلى أجره وأغلى ثمنًا للبيد العاملة، بل غالبًا ما كانت أجره العمال أو العاملات عندهم أرخص من غيرهم، هذا مع تأخير إعطاء أجره العمال أو العاملات.

أما بالنسبة إلى أعمال الفلاحة والبذر والحصاد، فكانوا لا يسمحون لفلاحي قراهم أن يستأجروا أي آلة حديثة للقيام بالأعمال المذكورة، بل كانوا يجبرونهم على استئجار جرارات وحصادات السادات - كما يقولون - وكانت زراعتهم بذرًا وحصدًا تبقى آخر موسم المنطقة كل المنطقة.

ويروي السيد عبد الرزاق خليل المحمد (أبو خالد)، وهو من أهالي قرية تل معروف، اشترى أحد ساكني قرية تل معروف، وهو إبراهيم خليف مع شريكه إبراهيم حوبو، جاروشة صغيرة متنقلة، تجرها دابة خاصة؛ لجرش البرغل والعدس، وكان لشيخ طاحونة كبيرة، فقال الشيخ لصاحب الجاروشة: إن جاروشتك تضارب طاحونة السادات؛ لذلك إما أن تباع جاروشتك، أو ترحل من القرية، فاضطر المسكين إلى بيع جاروشته، وعمل لدى شيخ القرية سائقًا على جراره الزراعي، إلى أن مات المسكين كمدًا.

- كان في الجزيرة عدد من شيوخ التصوف، كما ذكرت، والمفترض أن التصوف هو روح الإسلام وخلاصته، وبذلك يجب أن يكون الصوفي مضرب المثل في الإيثار والتواضع وإنكار الذات، ولكن مشايخ التصوف، على الرغم من أنهم من شعب واحد ومذهب فقهي واحد وطريقة صوفية واحدة، فالجوة أخذة مداها بين هؤلاء المشايخ، فلا تراور بينهم البتة، اللهم إلا في حال وفاة شخص منهم، ربما عزوا بعضهم في مثل هذه الأحوال. بل بلغ بهم الأمر في التنافس على المصالح الدنيوية حتى دفعهم ذلك إلى اقتسام مناطق النفوذ والدعوة، فلا يسمح لأي من الشيوخ

أن يدخل منطقة نفوذ الشيخ الآخر ليقوم بالدعوة والإرشاد⁽²²⁾.

- مع فهبي للتصوف أنه الورع أو التقوى أو الإحسان، أو هو ترك كثير من الحلال خشية الوقوع في القليل من الحرام، أو هو ملازمة الكتاب والسنة، ومع فهبي للتصوف ضمن هذه المعايير، إلا أن واقع التصوف وشيوخه في الجزيرة مخالف لذلك في كثير من الأمور.

فالحلف بغير الله هو السائد، بل إذا حلفت في مجتمع الميردين بالله قد لا يصدقونك، وإذا حلفت بمرقد الشيخ أو برأسه فلا يتطرق إليهم أدنى شك في قولك، إضافة إلى البناء على القبور، وتقديس تلك المراقد، بل من يمشي مئات الأمتار حبواً إلى أحد تلك المباني، إضافة إلى وضع أحواض صغيرة عند رأس قبر بعض شيوخ التصوف، وتملاً تلك الأحواض بالماء ليستشفي المرضى بذلك الماء، وليتبرك به الزائرون، إضافة إلى تقديم النذور لبعض الصالحين من أمثال الشيخ عبد القادر الكيلاني.

ليصل الحال إلى الزلل والوقوع في مهالك الشرك، يقول د. محمد معشوق الخزنوي: "هذا ويسمى هذا النوع من الشرك (الإشراك في التصرف) ومع الأسف لا زال فينا ومن بني جلدتنا من يلهجون صباح مساء بكلمة التوحيد وفي نفس الوقت ينسبون مثل هذا لمشايخهم حتى أن كثيراً منهم يصفون أحد مشايخهم في الحلقة التي تسمى بالخمسة بقولهم: (المتصرف على الإطلاق) سبحان الله وتعالى عما يقول الجاهلون - اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون"⁽²³⁾.

- بعد وفاة الشخصيات الرئيسية في بعض بيوت شيوخ التصوف، وقع الخلاف بين بقية أبناء تلك الأسرة حول من الذي يقوم بخلافة الشيخ، وإدارة التكية فأصبحت التكية تكتيان، وإدارتها إدارتان مختلفتان متقاطعتان، بل مقطعا الأرحام، لا يتكلم بعضهم مع بعض منذ سنين طويلة، وفشلت كثير من محاولات الإصلاح بينهم، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

ففي ظل توريث مشيخة الطريقة النقشبندية، وحصر أمرها بيد الشيخ المتسلم زعامة الطريقة، وعدم وجود أي مجلس أو هيئة مستقلة تبت في أهلية الشيخ الجديد، ومع ازدياد الثروة المالية لبعض الأسر المشيخية، بدأت ملامح أول خلاف لدى مشايخ النقشبندية الكردية في الجزيرة السورية مع وفاة الشيخ علاء الدين الخزنوي عام 1969، وتولي الشيخ عز الدين الخزنوي الخلافة والإرشاد، وكان طرفي الخلاف أولاد الشيخ محمد معصوم الابن الأكبر للشيخ أحمد الخزنوي، وعمهم الشيخ عز الدين، وتمحور حول نصيب أولاد الشيخ محمد معصوم في ثروة العائلة⁽²⁴⁾.

إن تصدير مشايخ التصوف لبعض مفهومات الصوفية والمخالفة للعقيدة الصحيحة شاعا في المنطقة، وكان الويل لمن يعترض.

(22) انظر: نوبار محمد، «علاقة الكرد بالتصوف من خلال الطريقة النقشبندية»، موقع مدارات كورد، بتاريخ 2015/5/1 على الرابط:

<https://www.medaratkurd.com/201505/>

(23) محمد معشوق الخزنوي، ومضات في ظلال التوحيد، ط1، (دمشق: الدار المتحدة، 2004)، ص50.

(24) - انظر: نوبار محمد، «علاقة الكرد بالتصوف من خلال الطريقة النقشبندية»، موقع مدارات كورد، بتاريخ 2015/5/1 على الرابط:

<https://www.medaratkurd.com05/2015/>

ومن غرائب ما بات ثابتاً في طقوس بعض الصوفية في الجزيرة أن محبة الشيخ مقدمة على محبة الله، وقد تناول هذا الأمر محمد سعيد رمضان البوطي معترضاً، ويقول محمد معشوق الخزنوي: "ومن الجدير بالذكر أن بعض الجهلة بدؤوا يروجون مبدأ أن محبة الشيخ مقدمة على محبة الله وقال به مع الأسف بعض الخزنوية وكفرهم على أساسه الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في كتابه هذا والدي، مع أنه يشترك معهم في الصوفية، وإنني أبدأ إلى الله من هذا وأتبرأ من هذا القول وقائله مهما كانت صلة قرابته"⁽²⁵⁾.

وذهب بعض الجهلة من المتصوفة إلى المبالغة في تقديس مشايخ طرقهم الصوفية لدرجة اعتقادهم بأن شيخهم هم المهدي المنتظر، كما حصل مع مريدي الشيخ أحمد الخزنوي، من دون أي ردع ومنع لهذه التصورات الخطرة على العقيدة، حتى وقف نجله الشيخ علاء الدين يوم وفاة والده أمام المشيعين مخاطباً: "هذا هو والدي الذي كنتم تقولون عنه: إنه المهدي المنتظر قد مات! فهل تصدقون الآن بأنه ليس المهدي المنتظر كما كنتم تروجون له"⁽²⁶⁾.

- كانت تجمع من المرتدين المؤن والحطب لبيت الشيخ، ما يكفي الشيخ ومريديه وضيوفه لمدة سنة كاملة، فإن لم يكف ما جمع سابقاً، يكلف الشيخ أحد المقربين إليه من أئمة مساجد القرى⁽²⁷⁾، ويعيدوا الجمع مرة أخرى، وربما يكلف بعض الأشخاص المعينين للقيام بهذه المهمة، فيطوف على كل بيت، ويطلب إليهم أن يحضروا ما تيسر إلى مكان معين، حيث تجمع المؤونة والحطب، ثم ينقل إلى قرية الشيخ.

وقد ذكر الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في كتابه هذا والدي، أن من الأسباب التي دفعت والده، رحمه الله، إلى أن يهاجر من بلده إلى دمشق، هو تكليف بعض شيوخ الطرق الصوفية، والذين كانت لهم صولة وشهرة، والده ليجمع لهم من مريديهم الحطب للوقود⁽²⁸⁾.

- قد يقول بعضهم: أليس بين هؤلاء الأقسام رجل ينصح أو يعارض التصرفات الخاطئة من قبل بعض الشيوخ؟

أقول: وفي ظل هذه الأجواء كان الويل لمن يحاول تجاوز الخطوط الحمراء سواء بالحديث عن المسائل الثقافية خارج ما كان يتلقاه المريدون أم الاهتمام بقضايا خارج الإطار المسموح به، سواء كانت ثقافية أو سياسية بل حتى دينية مخالفة للنهج العام لتلك العائلات الصوفية، فسرعان ما تنهال على من تجرأ على ذلك صفات الانحراف عن الدين والزندقة والكفر، وأقلها توصيفهم بـ (الوهابية)، والويل والثبور لمن اتهم بالوهابية بين هؤلاء الأقسام، لأن ذلك كان يعني رسم إشارة الشطب على المتهم لا في مجال الدراسة فحسب بل على صعيد العمل وكسب الرزق أيضاً، وهذا ما لم يسلم منه حتى المتحررون من أبناء تلك العائلات من مثل الشيخ محمد معشوق الخزنوي⁽²⁹⁾.

- شاعت ألقاباً ورتب في مجتمع الجزيرة، وربما في بعض المجتمعات الأخرى المجاورة لهذه المحافظة، ولا

(25) محمد معشوق الخزنوي، ص 69.

(26) انظر: نوبار محمد، «علاقة الكرد بالتصوف من خلال الطريقة النقشبندية»، موقع مدارات كورد، بتاريخ 2015/5/1 على الرابط:

<https://www.medaratkurd.com05/2015/>

(27) والذي يطلق على الواحد منهم لقب (ملا) وكان تعيين الملا في إمامة مسجد القرية وعزله من قبل الشيخ والأخما اتفاقاً.

(28) محمد سعيد رمضان البوطي، هذا والدي، ط 3، (دمشق: دار الفكر 1995)، ص 31.

(29) انظر: علاء الدين جنكو، سيرة الشاعر ملا أحمد بالو، ط 1، (بيروت: من مطبوعات مؤسسة سما/ دار هير، 2007)، ص 16.

يرضي صاحب اللقب الأعلى أن ينادى باللقب الأدنى وهذه الألقاب هي:

1. الشيخ: وهو رأس الأسرة الصوفية وخليفة السابق المتوفى، وأصحاب الألقاب الأخرى جميعهم خاضعون له، ويطلق لقب الشيخ على أفراد الأسرة كلهم صغارًا أو كبارًا.
2. الملا: وهو أدنى رتبة من الشيخ، وقد يكون أعلم من الشيخ، ويشغل إمامة مسجد قرية أو مدينة.
3. الفقه: ويقصد به طالب العلم في نظام الحلقات، فإذا توقف عن طلب العلم، وأصبح إمامًا لمسجد يطلق عليه ملا، وإن لم يكن مجازًا، بل حتى لو كان في بدايات طلبه للعلم، وإذا أطلق عليه لقب ملا، لا يقبل من أحد أن يقول له، فقه اللهم إلا من شيخه، وقد يكرمه الشيخ بلقب ملا، فلا يناديه بلقبه الحقيقي.
4. الحجي: وهو من أدى فريضة الحج إلى بيت الله الحرام، وقد يكون صاحب لقب صوفي أو سيد أو لا لقب له قبل أداء فريضة الحج، ولا يقبل من أحد أن يقول له صوفي أو سيد أو يناديه باسمه المجرد.
5. السيد: وهذا لقب خاص بمن ينسب إلى الحسن أو الحسين من أحفاد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا أدى فريضة الحج ينادى بالحجي.
6. الصوفي: وهو وإن كان لقب العلماء العاملين والأولياء الصالحين والأصفياء الكاملين والزاهدين السالكين، إلا أنه في الجزيرة لقب للمريد الأمي الجاهل الأشعث المبتذل، لا عند اللادنيين العلمانيين فحسب، بل عند شيخه والمتعاملين معه ضمن دائرة الطريقة التي ينتسب إليها، ولا يقبل صاحب أي رتبة من الرتب السابقة بهذا اللقب، ولو قلت للشيخ أو للملا أو للفقه يا صوفي، لنتلت الإهانات من دون حساب، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

المسألة الرابعة: الآثار السلبية لبعض شيوخ التصوف في الناس في الجزيرة

مما لا شك فيه أن لتربية شيوخ التصوف آثارًا إيجابية في تربية بعض الناس، وخاصة مع ازدياد نفوذ الحكومات، فانشطرت الخلافات العشائرية، والغزوات القبلية، وقلت السرقات، وحسنت الأخلاق نسبيًا، ولكن كانت للسلبات الموجودة في سلوكيات بعضهم آثار سلبية بالغة الخطر، وما زالت، ومن هذه الآثار:

- وقوع الصراع والتصادم بين الأجيال الناشئة من طرف، وشيوخ التصوف ومريديهم من طرف آخر، فشيوخ التصوف ومريدهم يقفون في وجه التقدم والتحديث، ومع أنهم كانوا يستفيدون من نتائج التقدم العلمي والتكنولوجي، كانوا لا يحبذون الدراسة في المدارس الحكومية، بل يفتي بعضهم بتحريمها كما كانوا يمنعون الدراسات العلمية التجريبية.

- تمكن أعداء الإسلام غزو قلوب أبناء المسلمين في تلك المنطقة، فشككواهم في دينهم، ومع أن النصارى في تلك الديار كانوا لا يقومون بالتبشير إلى النصرانية إلا أنهم نجحوا إلى حد بعيد إلى إبعاد المسلمين عن دينهم، وتمكن العلمانيون والشيوعيون من أبناء المنطقة أن ينزعوا الإيمان من قلوب كثير من الشباب، ويملؤوا تلك القلوب بالإلحاد والكفر الصريح، والعياذ بالله.

- خروج التصوف عن مساره الصحيح بوصفه منهجًا للتزكية وتطهير النفوس، وفقدان التصوف صدقيته لدى الناس عمومًا، ولدى الشباب الناشئ خصوصًا، وذلك بسبب ما بين مراكز التصوف من نفور وتنافس على الدنيا، ووقوع الشيوخ في تناقضات مع مواظبتهم.

يقول محمد معشوق الخزنوي: "هذا ومع مضي الزمن نسب الاتباع الجهلة إلى الشيخ رحمه الله أقوالا وأفعالًا تتعارض مع منهجه وتفتقر إلى أبسط شروط وقواعد الضبط والنقل كل ذلك ليبرروا تصرفاتهم ويصدقوا قراراتهم بخاتم الشيخ الذي أصبح أداة استهلاكية للاتباع والمحسوبين عليه زورا وبهتانا، الذين لم يدخروا أي وسيلة فيما بعد لتقوية هذا المنهج المنحرف حيث بنوا على قبره مشهدا كمشاهد الرافضة ضاربين بوصيته عرض الحائط وصرقوا على بناء قباب هذا المشهد ومآذنه ونقوشه وفرشه المبالغ الطائلة، كل ذلك ليخدعوا بها أعين البسطاء وليغسلوا بها أدمغتهم ليتمكنوا من المتاجرة بعظام الشيخ المسكين رحمه الله الذي يجمع له الجهلة في يوم معين من السنة يسمونه - حج الفقراء حينًا ومولد الشيخ عز الدين حينًا آخر - حيث يجتمعون وتقدم القرابين والندور ويدعى الشيخ ويطاف بقبره وذلك في اليوم الواحد والثلاثين من الشهر السابع الميلادي من كل عام، الذكرى السنوية لاعتلاء أحد جهلتهم عرش المشيخة التي تعتبر من أهم قواعدها أن محبة الشيخ مقدمة على محبة الله - والعياذ بالله"⁽³⁰⁾.

- شاع السفور بين عدد من بنات المسلمين بسبب تشكيك أعداء الإسلام في الإسلام، وغرسوا في نفس الفتيات أن الإسلام عدو المرأة، وذلك من خلال موقف الشيوخ ومريدتهم من تعليم البنات.

- اعتناق كثير من الناس الشيوعية، بسبب اهتمام الشيوخ بالأثرياء وإهمالهم الفقراء، مع أن غالب مريدتهم من الفقراء.

- أدى تفضيل مصالحتهم على مصالح سكان قراهم إلى ابتعاد عدد من أهل القرية عن الإسلام، بل بعضهم تمنى لو لم يكن مسلمًا، وأنه لا يخضع لسلطة هؤلاء المشايخ.

- استهتر كثير من الناس بالإسلام، واستخف به، بسبب صراع شيوخ التصوف على مناطق النفوذ، وعدم تواصلهم، وبسبب جمع المؤن والحطب لأولئك الشيوخ.

- اعتاد كثير من أئمة المساجد على الهوان والخضوع للأغوات، ورؤساء العشائر والإقطاع، بسبب خوفهم على لقمة عيشهم، فمن يقف في وجه ظلم الإقطاع يعزل عن إمامة المسجد بموافقة الشيخ، إذ إن رضی الإقطاعي أهم من مصلحة إمام القرية، وبذلك يسكت إمام المسجد أمام كثير من المواقف الظالمة.

في حين إن الشيوعيين يقفون بعنف، وربما بدعم من بعض رفاقهم في وجه تلك المظالم، فيؤدي سكوت الإمام على الظلم، ومقاومة الشيوعيين للظلم إلى التفاف الناس حول الشيوعيين، وعدم الثقة بإمام المسجد، بل أصبح بعض أئمة المساجد شيوعيين عقيدة وسلوكًا، متخليين عن الإسلام والإيمان والعياذ بالله.

- وبالمقابل فإن كثيرًا من العامة - وخاصة النساء الأميات - انحرفت عقائدهم، إذ صاروا يقصدون الأضرحة، ويتوجهون إليها بالدعاء لقضاء حوائجهم، بل بعضهم، والنساء خاصة، اعتقدوا أن سبع زيارات في سبعة أيام جمعة إلى مرقد الشيخ تعدل حجة إلى بيت الله الحرام، لمن لا يقدر على الحج، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي

(30) محمد معشوق الخزنوي، مرجع سابق، ص 7.

العظيم.

المطلب الثاني: استغلال النظام للطرق الصوفية

المسألة الأولى: فصل الدين عن السياسة.

وبصورة عامة يمكن الحديث عن علاقة الصوفية بالسياسة من جهتين؛ الأولى: التمييز بين الصوفي فردًا، والمؤسسة الصوفية التي ينتمي إليها ويمنحها ولاءه.

فالملاحظ أن المؤسسات الصوفية أغلبها لا تمارس العمل السياسي ممارسة مباشرة، فلا تشكل لها مؤسسات تنظيمية حزبية تمثلها أو تؤدي عملها وفق برامج سياسية، على أن كثيرًا من المنتسبين إلى هذه المؤسسات يمارسون السياسة بصورة مباشرة ويومية، وربما يتولى كثير من أتباع تلك المؤسسات بعضًا من المهمات الحزبية، ويتقلدون بعض المناصب الحكومية ومسؤوليات الدولة من مثل الإفتاء والأوقاف وغيرها.

وهذا ما خلق للصوفي ازدواجية الوجود بين واقعين؛ الأول: عالمه الصوفي الذي يمارسه ضمن مؤسسته الصوفية (الطريقة أو التكية)، وذلك من خلال خضوعه التام لشيخه ومربيه.

والثاني هو عالمه السياسي الذي يخضع له من خلال التزامه بالقوانين واللوائح.

وللوهلة الأولى يشعر المراقب في ظاهر الأمر بالتناقض بين العالمين الذي كان حاضرًا في المشهد السوري بصورة عامة، وفي المدن الكبرى بصورة خاصة.

أما في الجزيرة السورية فلم يكن الأمر كذلك بحكم سلب الإرادة الشخصية بكل جوانبها من الصوفي تجاه شيخه المسؤول الأول لمؤسسته التي يتبعها، مع أن الشيخ نفسه كان يلفت أنظار الجهات السياسية، ويثير رغبتها، وخاصة الحزبية، للاستفادة منها، وخاصة في أثناء الانتخابات البرلمانية.

ولا بد من الإشارة إلى أن العلاقة بين النظام السوري والطرق الصوفية ليست وليدة مرحلة الثورات الراهنة، ولا تلك التي سبقتها بقليل، فالعلاقة بينها تعود إلى بدايات نشأة الدولة السورية بل يعيدها بعضهم إلى بدايات نشأة التصوف في سورية عمومًا⁽³¹⁾.

لكن العلاقة المتلازمة التي حاول النظام السوري الاستفادة منها تعود إلى بداية انقلاب حزب البعث واستلامه السلطة في سورية، فاستعان بهم لتقويض حركات الإسلام السياسي المتمثل آنذاك بحركة الإخوان المسلمين، وقد توصلت العلاقة بين النظام والطرق الصوفية ووصلت إلى قممها بداية الثمانينيات في ذروة الأحداث بين النظام وحركة الإخوان المسلمين.

وربما يتساءل بعضهم هل كان المستفيد هو طرف النظام؟

(31) انظر: دراسة حول كتاب تاريخ التصوف في سوريا، موقع البيان، بتاريخ 3 يوليو 2006 على الرابط:

لا شك في أن الطرق والمؤسسات الصوفية كانت مستفيدة من هذه العلاقة المتلازمة، حيث سعت من خلال تلك العلاقة إلى توسيع دائرة نشاطها من جهة، واستخدام النظام في وقف مد زحف خصومهم التقليديين، وهم السلفيون من جهة ثانية، علاوة على تقوية موقفهم في الاصطفاف في مساحة محايدة لتجنب المصادمة مع حركات الإسلام السياسي، وخاصة في بدايات الثورة السورية عام 2011، وإن ظهرت بعض المواقف من شخصيات صوفية تصدرت المشهد، ووقفت إلى جانب النظام والسلطة في مواجهة المتظاهرين كموقف الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله⁽³²⁾.

لم يكن موقف الطرق الصوفية في الجزيرة ومشايعها مختلفاً عن موقفها في دمشق وغيرها من المدن السورية، حيث نأت بنفسها عن الدخول في مجريات الأحداث، فاتخذت مواقف صامته في أغلب الأحيان.

وإن كنت أبرر لهم هذا الموقف، كون الذين بادروا وأخذوا بزمام الأمور في قيادة الشارع الثائر والحراك الشبابي هم الحركيون من المستقلين أو الحزبيين الذي لم يلتزموا بمواقف أحزابهم، سواء كان هؤلاء ذوي توجهات إسلامية أم علمانية.

الموقف الصامت هذا تسبب في تشتيت بعض العائلات الصوفية، وأضعف أخرى، وجعل بعضها في مواقف حرجة أمام الحراك الجماهيري!

وكانت من أهم نتائج هذا الموقف الخروج المتسارع لكثير من رموز التصوف خارج سورية حفاظاً على ما تبقى من سلطتها الدينية أو الخوف من الانجرار إلى مواجهة -توصف بالعمالة لصالح النظام- حاولت ألا تقع فيها وتحافظ على نقاء سمعتها ونظافة تاريخها، على الرغم من خروج البعض العاجل للمحافظة على مكتسباتهم المادية، وللغفلة بفرصة السبق لأماكن تعشعش فيها لتبدأ بنشاطها من جديد حتى لو كان المكان في أقاصي الدنيا.

فعائلة الخزنوي العريقة في التصوف لم يبق في مركزها أحد من أبنائها، وباتت بحكم تأثيرها أطلاقاً بعد هجرة أبنائها إلى تركيا بعيد بدء الأحداث في سورية، على الرغم من أن الشيخ محمد مطاع قد أسس مقرّاً لدعوته في تل عرفان.

أما عائلة الشيخ إبراهيم حقي أصابها خلل بوفاة اثنين من دعائم العائلة الشيخ عدنان والشيخ خاشع، وبدأت بترتيب أوضاعها بعد تولي الشيخ كلال المشيخة وإعادة ترميم مسجد جده إبراهيم حقي في قرية حلوة.

وكذلك عائلة الديرشوي تأثرت بفقدانها عميدها الشيخ محمد نوري ووجود أبنائه خارج سورية، ورتبت العائلة أوضاعها بعد تولي الأستاذ محمد بشير المشيخة بتأييد أبناء العائلة إياه.

لا ينكر أحد أن التصوف عموماً، والطريقة النقشبندية خصوصاً، ارتبطت بصورة مباشرة بالمكون الكوردي في سورية، يقول الباحث نوبار محمد: "بقي التصوف مهيمناً على الأكراد وعامل أمان لهم فكرياً وعملياً وانتقلت الزعامة بعد الشيخ خالد في معظمها إلى تلامذته من الأكراد، وقد تولى الإرشاد من بعده الشيخ إسماعيل الأناراني، ولتسليط الضوء أكثر نبين هنا الجانب الغربي من كردستان أو ما يسمى بكردستان سورية حيث نزح إليها كوكبة من العلماء الأجلاء من بيت الخزنوي والديرشوي والعلواني (الزيباري) من كردستان تركيا في بداية القرن

(32) عصام عبدو، «البوطي: الفتوى والثورة»، معهد العالم للدراسات، بتاريخ 5 ديسمبر 2018 على الرابط:

الماضي لتصبح أماكن إقامتهم مدارس تعلم الناس الشريعة ليس في منطقة الجزيرة⁽³³⁾. وحاولت العائلات الصوفية جميعها أن تتبوأ منزلة تراعي فيها الوسطية في الدعوة والليونة في التعامل، وبناء قاعدة لها لا تفرق فيها بعلاقتها على أساس قومي وهذا ما ضمن لها النجاح نوعاً ما في عدم المواجهة مع الشعب. ولا شك في أن النظام السوري لم يكن يرى في هذا ما يهدده ما دامت تلك الدعوات مقتصرة على الدعوة والارشاد وبعبارة عن أي طروحات ودعوات سياسية.

المسألة الثانية: تبريد أجواء الثورة وتبديد الحماس فيها

نأت الصوفية في منطقة الجزيرة بنفسها عن الثورة علناً، وبصورة مباشرة، لأن بعض شخصياتها رأت أنها بداية لفوضى خلاقة.

ولابد من الإشارة هنا إلى تخوف كثير من الصوفية أن تتولى السلفية قيادة الحراك الثوري، وهو ما لا تحبذه الصوفية، بل إنهم مستعدون للتحالف مع العفاريت في سبيل عدم فسح المجال لهم في ذلك.

وبذلك باتت الصوفية بين موقفين أحلاهما مر، أحدهما الانضمام إلى السلفيين الجدد، والثاني تأييد المتظاهرين في وجه النظام، ومن ورائهم الذين يقودون الحراك السياسي الفعلي للمعارضة السورية، فكان السكوت والنأي بالنفس والابتعاد كلياً عن واجهة الأحداث أسلم ما يمكن اتخاذه.

فرت المؤسسات والطرق الصوفية في الجزيرة من مواجهة داعش في المناطق التي وصل إليها التنظيم، بل وصل الحال إلى دخول داعش إلى تل معروف وتفجير مرقد الشيخ أحمد الخزنوي وتدمير إحدى المئذنتين في مسجد البلدة ثم انسحابهم المفاجئ والمثير للجدل.

ويعد استيلاء قوات قسد على الجزيرة، حاولت الطرق ومشايخها اتخاذ موقف حيادي، والتزموا الصمت والنأي بالنفس عن كل ما يجري، واقتصار مهماتها على الدعوة والإرشاد في المساجد ومجالس العزاء، وإدارة الثانوية الشرعية في القامشلي من قبل الشيخ كلال حقي.

والمساحة التي منحها النظام للصوفية في المدن الكبرى في الداخل والفضاء الذي سمحت به الإدارة الذاتية للمؤسسات الصوفية كان مقابل صمت الأخيرة عن ممارسات السلطة في المنطقة التي تغض الطرف عن أنشطة تلك المؤسسات من جهة ثانية.

ولعل هذه المغاللة غير الإرادية بين الجانبين جاءت نتيجة تلاقي مصلحة الطرفين، ففي الوقت الذي تستفيد المؤسسات الصوفية من إفساح المجال لنشاطها العبادي والاجتماعي، نجد أن الإدارة الذاتية تقطع بذلك الطريق لبروز أي اتجاهات تمثل الإسلام السياسي بين الجماعات الكوردية في الوقت الذي نجد فيه أن كل الجماعات التي تصدرت المشهد السياسي الكوردي ذات توجهات علمانية ابتداءً من حزب الاتحاد الديمقراطي ذي السلطة

(33) انظر: نوبار محمد، «علاقة الكرد بالتصوف من خلال الطريقة النقشبندية»، موقع مدارات كورد، بتاريخ 2015/5/1 على الرابط:

الفعلية بحكم الأمر الواقع، وكذلك المجلس الوطني الكوردي الحاضر إعلامياً أكثر من حضوره الفعلي. لتبقى الجماعات الصوفية في منتصف المسافة من الأطراف جميعها، محققة بذلك نجاحاً بحكمة مشايخها في وقت يعد من أصعب الأوقات التي تمر بها سورية عموماً، وجزيرتها خاصة.

الخاتمة

وفي الختام رب قائل يقول: ما الحلول لتلك السلبيات وآثارها حتى يكون التصوف كما يراد عند أنصاره ومحبيه؟

وللإجابة عن هذا السؤال الضروري أرى أن الأمر يحتاج إلى مضاعفة الجهد في مقاومة الأهواء والمصالح، ونبذ الأنانيات وحب الذات والإعجاب بها، وتقويم سلوك النفس وتهذيبها وتزكيتها على ضوء الكتاب والسنة، والاقتداء بسيرة السلف الصالح رحمهم الله تعالى.

ولا بد من رجال التصوف ومشايخها الاستغناء بما في أيدي الناس وجعل ما عندهم من مال في خدمة الدعوة والإرشاد وجعل العمل بمختلف طرقه المشروعة في الزراعة أو التجارة أو الصناعة أو العمران مصدر أرزاقهم، ومستلزمات دعوتهم، وإذا جاء بعض المنفقين في سبيل الله بأموالهم ووكلوهم بإنفاقها لا مانع من قبضها، والاستعانة بها في سبيل دعوتهم وإرشادهم الناس وإصلاحهم وحل مشكلاتهم.

لا بد من رجال التصوف أن يعملوا جاهدين على تشجيع مريديهم على العلم والمعرفة، لأتتهما السبيل للارتقاء بالتصوف لأخذ مكانه الحقيقي والقيام بمهمته في الإصلاح والإرشاد.

ويطلب منهم تربية المتصوفة على قيمة الثقة بالنفس وعدم الهبوط بها إلى مراتب الإذلال بحجة ممارسة الزهد لأنه في حقيقته صعود بالنفس من سفاسف الأمور إلى معاليها، ومن ثم بناء ثقة في الأنفس يحقق فيها المعنى الحقيقي للتصوف.

لا بد من الحذر في سلب الإرادة من مشايخ التصوف ورجالاتها والسقي للعمل على استقلال الإرادة، والانخراط في الدفاع عن الحق، وأن يشمل ذلك المشايخ والمريدين على حد سواء، مما يكون من شأنه حفظ الكرامة الإنسانية.

وأخيراً لا بد من الحذر في التعامل مع السلطات التي تحتضنهم كيلا يصبحوا أداة رخيصة واستغلالهم في مواجهة خصومهم، وذلك للمحافظة على نقاء التصوف.

المصادر والمراجع

1. ابن تيمية، الصوفية والفقراء، قدم له محمد جميل غازي، (جدة: دار المدني، ب ت).
2. ابن تيمية، مجموع الفتاوى، (السعودية: الأوقاف السعودية، وزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 2004).

3. ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، خليل شحادة (محققًا)، ط2، (بيروت: دار الفكر، 1988).
4. البوطي. محمد سعيد رمضان، هذا والدي، ط3، (دمشق: دار الفكر 1995).
5. الخزنوي. عبد البديع، مكتوبات الشيخ أحمد الخزنوي، ط1، (إسطنبول، مكتبة أكتاش، د.ت)
6. الخزنوي. محمد معشوق، ومضات في ظلال التوحيد، ط1، (دمشق: الدار المتحدة، 2004)
7. الديرشوي. محمد نوري، القطوف الجنية، (دم: دن، د.ت).
8. السهروردي. شهاب الدين عمر، عوارف المعارف، أحمد عبد الرحيم السايح (محققًا)، ط1، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2006).
9. الكلاباذي. محمد بن إبراهيم، التعرف لمذهب أهل التصوف، ط1، (مصر: مكتبة الكليات الأزهرية، 1969).
10. الكوردي. محمد أمين، تنوير القلوب، ط1، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1995).
11. المقري. أحمد بن علي، المصباح المنير، يوسف الشيخ محمد (محققًا)، ط2، (بيروت: المكتبة العصرية، 1418هـ).
12. جنكو. علاء الدين، سيرة الشاعر ملا أحمد بالو، ط1، (بيروت: من مطبوعات مؤسسة سما، دار هير، 2007).
13. جنكو. علاء الدين، «إسهام الكورد في الحياة الروحية والدراسات الإسلامية في سوريا»، مجلة قلمون، العدد الثاني، (أغسطس 2017).
14. حقي. عدنان، الصوفية والتصوف، ط2، (دمشق، دار العلوم الإنسانية، د.ت).
15. دم، كتاب الذكرى السادسة لرحيل شيخ الطريقة النقشبندية، (-1419 1998).
16. شكري. طه، نبذة من أحوال المرشد إبراهيم حقي وأثره العلمي، ط1، (دمشق: دار النعمان، د.ت)
17. يوسف. محمد خير، تنمة الأعلام، ط1، (بيروت: دار ابن حزم، 2002).